

دلائل الإعجاز

الدِّفْنِ لِيُبْحَثَ عَنْهُ فُيُخْرَجُ . وكما يُفْتَحُ لِكَ الطَّرِيقُ إِلَى الْمَطْلُوبِ لِنَسْلِكَه
وَتَوْضَعُ لِكَ الْقَاعِدَةُ لِنَبْنِيَّ عَلَيْهَا وَوَجَدَتِ الْمُعَوَّلَ عَلَى أَنَّهَا هُنَا نَظْمًا وَتَرْتِيبًا
وَتَأْلِيفًا وَتَرْكِيبًا وَصِيَاغَةً وَتَصْوِيرًا وَنَسْجًا وَتَحْبِيرًا وَأَنَّ سَبِيلَ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي
الْكَلَامِ الَّذِي هِيَ مَجَازٌ فِيهِ سَبِيلُهَا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُهَا . وَأَنَّهُ كَمَا يُفْضَلُ
هُنَاكَ النِّظْمُ النَّظْمُ وَالتَّأْلِيفُ التَّأْلِيفُ وَالنَّسْجُ النَّسْجُ وَالصِّيَاغَةُ الصِّيَاغَةُ . ثُمَّ
يُعْطَى الْفَضْلُ وَتَكْثُرُ الْمَزِيدَةُ حَتَّى يَفُوقَ الشَّيْءُ نَظِيرَهُ وَالْمُجَانِسُ لَهُ دَرَجَاتٍ كَثِيرَةٌ
. وَحَتَّى تَتَفَاوَتَ الْقِيَمُ التَّفَاوُتَ الشَّدِيدَ . كَذَلِكَ يُفْضَلُ بَعْضُ الْكَلَامِ بَعْضًا وَيَتَقَدَّمُ
مِنْهُ الشَّيْءُ الشَّيْءَ ثُمَّ يَزْدَادُ فَضْلُهُ ذَلِكَ وَيَتَرَقَّى مَنْزِلَةً فَوْقَ مَنْزِلَةٍ وَيَعْلُو مَرَقَبًا
بَعْدَ مَرَقَبٍ . وَتُسْتَأْنَفُ لَهُ غَايَةٌ بَعْدَ غَايَةٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ تَنْقَطِعُ الْأَطْمَاعُ
وَتُحْسَرُ الظُّنُونُ وَتَسْقُطُ الْقُوَى وَتَسْتَوِي الْأَقْدَامُ فِي الْعَجَزِ .
وَهَذِهِ جُمْلَةٌ قَدْ يُرَى فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ - وَبَادِرَةِ الظَّنِّ - أَنَّهَا تَكْفِي وَتُغْنِي . حَتَّى
إِذَا نَظَرْنَا فِيهَا وَعَدْنَا وَبَدَأْنَا وَجَدْنَا الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ مَا حَسَبْنَاهُ وَصَادَفْنَا الْحَالَ
عَلَى غَيْرِ مَا تَوَهَّيْنَاهُ . وَعَلِمْنَا أَنَّ هُمْ لِنَ أَقْصَرَ رُؤَا اللَّفْظِ لَقَدْ أَطَالُوا الْمَعْنَى وَإِنْ
لَمْ يَغْرُقُوا فِي النَّزْعِ لَقَدْ أَبْعَدُوا عَلَى ذَاكَ فِي الْمَرَمَى وَذَاكَ لِأَنَّهُ يُقَالُ لَنَا : مَا زِدْتُمْ
عَلَى أَنْ قَسَمْتُمْ قِيَّاسًا فَقُلْتُمْ : نَظْمٌ وَنَظْمٌ وَتَرْتِيبٌ وَتَرْتِيبٌ وَنَسْجٌ وَنَسْجٌ . ثُمَّ
بَنِيَتْ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَظْهَرَ الْمَزِيدَةُ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي هَاهُنَا حَسَبَ ظُهُورِهَا هُنَاكَ .
وَأَنْ يَعْظُمَ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ كَمَا عَظُمَ ثَمَّ . وَهَذَا صَحِيحٌ كَمَا قُلْتُمْ وَلَكِنْ بَقِيَ أَنَّ
تُعْلَمُونَ مَكَانَ الْمَزِيدَةِ فِي الْكَلَامِ وَتَصِفُوهَا لَنَا وَتَذَكُرُوهَا ذِكْرًا كَمَا يُذَكَّرُ
الشَّيْءُ وَيُعَيَّنُ وَيُكْشَفُ عَنْ وَجْهِهِ وَيُبَيَّنُ . وَلَا يَكْفِي أَنْ تَقُولُوا : إِنَّهُ خُصُوصِيَّةٌ فِي
كَيْفِيَّةِ النَّظْمِ وَطَرِيقَةِ مَخْصُوصَةٍ فِي نَسْقِ الْكَلَامِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ حَتَّى تَصِفُوا تِلْكَ
الْخُصُوصِيَّةَ وَتُبَيِّنُوهَا وَتَذَكُرُوا لَهَا أَمْثَلًا وَتَقُولُوا : مِثْلَ كَيْتٍ وَكَيْتٍ . كَمَا يَذْكُرُ لِكَ
مَنْ تَسْتَوْصِفُهُ عَمَلَ الدَّيَّاجِ الْمُنْقَشِّ مَا تَعْلَمُ بِهِ وَجْهَ دَقَّةِ الصَّنْعَةِ أَوْ يَعْلَمُهُ
بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى تَرَى عِيَانًا كَيْفَ